141478

الدكتور
عادل زيتون
كلية الآداب - جامعة دمشق

تاريخ الممالك

حقوق التاليف والطبع والنشر محفوظة لجامعة دمشق

المقدمة :

إن هذا الكتاب يعالج القضايا السياسية والحضارية المتعلقة بالعصر المماليكي في مصر والشام • وقد حاولنا أن تكون الموضوعات التي اشتمل عليها هذا الكتاب شاملة لمفردات مقرر تاريخ المماليك الصادر عن المجالس الجامعية المتخصصة • ويهمني أن أؤكد على أن هذا الكتاب هو في حقيقته " مستلات " من عدد من المراجع العلمية المتخصصة في تاريخ المماليك ، وقد اوردت أهمها في نهاية الكتاب •

الفصل الاول : قيام دولة المماليك البحرية

نشأة نظام المماليك :

المملوك وجمعه مماليك أسم مفعول مشتق من الفعل العربي ملك واتخذ هذا اللفظ معنى اصطلاحي خاص في التاريخ الاسلامي فأصبح يقصد بالمماليك جموع الرقيق الأبيض الذين كانوا يصبحون رقيقاً إما نتيجة للأسر في الحرب أو الشراء من التجار الذين يجلبونهم الى البلاد الاسلامية حيث يطلبون أثماناً مرتفعة لبضاعتهم .

وفي وسط الفوضى التي ألمّت بالعلاقات بين حكام مصر والشام عقب وفاة صلاح الدين الايوبي ، والنزاع الذي نشب بين أبناء صلاح الدين وأخوته وأقاربه ، أخذ كل أمير من الامراء الايوبيين في تكوين عصبية لنفسه يعتمد عليها في الاحتفاظ بأمارته أو في تحقيق مطامعه على حساب أمير آخر قريب أو بعيد . ولهذا لم يجد الأمراء الايوبيون وسيلة يدعمون بها نفوذهم ويقفون في وجه خصومهم سوى المماليك — أو الرقيق الأبيض — فأكثروا من شرائهم واهتموا بتدريبهم وتنشأتهم ليكونوا عدة وسنداً لهم.

ولم يأت القرن الثالث عشر الميلادي حتى ازداد نفوذ هؤلاء المماليك في الدولة الايوبية ، وأصبحت لهم كلمة مسموعة في الأحداث والمنازعات الداخلية ، وبلغ من ازدياد نفوذ المماليك السياسي في الدولة الأيوبية أنهم دبروا مؤامرة مكنتهم من خلع العادل الثاني واحلال الصالح نجم الدين أيوب محله في السلطنة . وهكذا أحس السلطان الصالح نجم الدين أيوب بفضل المماليك عليه وأهميتهم له في توطيد سلطانه والاحتفاظ بملكه ، فأكثر من شراء المماليك وعني بهم عناية فائقة جعلت نفوذهم يتضخم في صورة ملموسة في أيامه .

وقد تعددت التفسيرات لاسم البحرية الذي اطلق على مماليك الصالح أيوب فالرأي القديم الشائع — وهو الأرجح في نظرنا — يقول ان هذه الطائفة سُميت بالبحرية نسبة إلى بحر النيل ، حيث أن السلطان الصالح أيوب اختار لهم جزيرة الروضة وسط النيل لتكون مستقراً ومقاماً . وهناك رأي يقول إن تلك التسمية إنما مصدرها أن اولئك المماليك كانوا يجلبون من طريق البحر صحبة تجار الرقيق ، ومن

ثم سموا بالبحرية . وكان معظم هؤلاء المماليك البحرية من الأتراك ، مجلوبين من بلاد القفجاق ـ شمالي البحر الاسود ـ ومن بلاد القوقاز قرب بحر قزوين . وقد أجمع المؤرخون على أن الاتراك القفجاق امتازوا عن غيرهم من طوائف الترك بحسن الطلعة وجمال الشكل وقوة البأس فضلاً عن الشجاعة النادرة . وبفضل هذه الصفات من جهة والظروف الداخلية والخارجية التي أحاطت بمصر في أواخر العصر الايوبي من جهة اخرى ، تمكن المماليك من الاستئثار بالحكم ، كما سنفصل فيما بعد . ولم يلبث أن توصل البحرية بالذات الى السلطنة ، وظلوا يحكمون مصر والشام نحو قرن وثلث / ٦٤٨ ـ ٧٨٤هـ ـ ١٢٥٠ ـ ١٣٨٢ م / استطاعوا فيها مواجهة المشاكل العديدة التي واجهت العرب في مصر والشام عندئذ ، سواء كانت هذه المشاكل خارجية من جانب الصليبيين والمغول ، أو داخلية في صورة مؤامرات أو أزمات اقتصادية . وعندما زالت دولة المماليك الجراكسة أو البرجية / ٧٨٤ ـ ٩٢٢هـ ـ ١٣٨٢ ـ ١٥١٧ م / وبذلك تكون مصر والشام قد استمرت تحت حكم سلاطين المماليك اكثر من قرنين ونصف قرن أي حتى غزا العثمانيون مصر والشام عام / ١٥١٦ ـ ١٥١٧ / .

وسنرى انه طوال تلك العدة ظل المماليك يمثلون ارستقراطية حاكمة بوصفهم الجهاز الحربي الذي استأثر بحكم البلاد والدفاع عنها . وإذا كان المماليك البحرية الاوائل معظمهم من الأتراك القفجاق ، فانه ليس معنى ذلك أن جميع المماليك في مصر والشام كانوا طوال ذلك العصر ينتمون الى العنصر التركي وحده . ذلك أنه بدأت تصل الى مصر والشام منذ عهد الظاهر بيبرس دفعات من المماليك من أصل مغولي ، وهؤلاء ارتقوا بسرعة في وظائف الدولة حتى ان السلطان كتبغا نفسه / ١٢٩٤ ـ ١٢٩٦ م / كان مغولي الاصل . وفي ضوء هذه الظاهرة يمكننا أن نفسر انتشار بعض العادات المغولية في مصر على عصر سلاطين المماليك مثل أكل لحوم الخيل في المناسبات والحفلات .

وعندما وجد تجار الرقيق أن سلاطين المماليك يقدرّون بضاعتهم ويدفعون فيها الأموال الطائلة ، نشطوا في جلب المماليك ، وأسهم في هذه التجارة أيضاً بعض

التجار الاوربيين ـ وخاصة من مدينة البندقية وجنوه وبيزا ـ الذين نافسوا التجار الشرقيين في جلب المماليك الى مصر . وهكذا نجد أصول المماليك في مصر قد اخذت تتنوع تنوعا واضحاً منذ القرن الثامن الهجري أي الرابع عشر الميلادي ، اذ وجد منهم الاتراك والشراكسة والمغول والصقالبة واليونانيين والأسبان والألمان . وغيرهم وقد انتسب هؤلاء المماليك الظاهرية نسبة الى السلطان الظاهر بيبرس والمماليك الاشرفية نسبة الى السلطان الأشرف خليل وهكذا . وأحياناً نسب المملوك الى تاجره الذي جلبه كالمماليك العثمانية نسبة إلى التاجر عثمان ، أو إلى قيمته التي اشترى بها مثل قلاون الألفي الذي اشترى بألف دينار .

المماليك والحملة الصليبية السابعة :

وكان أن أحدث استرداد العرب المسلمين لبيت المقدس سنة / ٥٨٣هـ ١١٨٧م / رد فعل عنيف في الغرب الاوربي ، فقامت البابوية ـ كعادتها عقب كل كارثة تحل بالصليبيين في الشرق ـ بالدعوة لحملة صليبية جديدة . وكانت ظروف الغرب الاوربي عندئذ تحول دون أن يلبي كثير من ملوك أوربا وامرائها تلك الدعوة ، فلم يستجب لها إلا لويس التاسع ملك فرنسا ، وهو الرجل الذي اشتهر بتقواه وورعه ، حتى لقب بالقديس .

وفي الوقت الذي أخذ لويس التاسع ملك فرنسا يواصل استعداداته لحملته الصليبية ، اذا باخبار الحملة تتسرب الى السلطان الصالح نجم الدين ايوب . ذلك ان الامبراطور فردريك الثاني ـ الذي ظل مصادقاً للسلطان الكامل ومن بعده ابنه الصالح أيوب ـ أرسل سراً الى السلطان الصالح يخبره بأن ملك فرنسا " عازم على المسير إلى أرض مصر وأخذها " . وكان السلطان الصالح أيوب مريضاً في دمشق عندما بلغته تلك الأخبار ، فحُمل الى مصر ونزل عند أشموم طناح ليكون على مقربة من ميدان العمليات الحربية .

أما لويس التاسع فقد وصل على رأس حملته الى جزيرة قبرص في ايلول / ٦٤٦هـ / حيث قضى الصليبيون بضعة أشهر حصلوا فيها على المزيد من المساعدات وسواد

التموين ، حتى استقر الرأى أخيراً على مهاجمة دمياط ، فأبحرت الحملة اليها في ايار سنة ١٢٤٩/ م ـ ٦٤٧ هـ/ .

وهنا نلاحظ ملاحظتين : الأولى ان فكرة الاستيلاء على مصر بوصفها مفتاح بيت المقدس كانت لا تزال مسيطرة على عقول الصليبيين في الشرق والغرب جميعاً . والثانية ان لويس التاسع أراد أن يمهّد لهجومه بنوع من حرب الاعصاب ، فاتبع اسلوب المغول الخاص بإرسال رسائل مليئة بعبارات التهديد والوعيد والمبالغة إلى حاكم البلد الذي ينوون غزوه ليسقط في يده ويستسلم دون مقاومة . من ذلك أن لويس التاسع لم يكد يصل الى دمياط في أوائل حزيران سنة ١٢٤٩/ م / حتى أرسل رسالة عنيفة إلى السلطان الصالح يشرح له سوء موقف المسلمين في الاندلس ويطلب منه التسليم فوراً " وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون اليك بأسياف القضاء " . ووصلت رسالة لويس إلى الصالح أيوب وهو مريض ، فاغرورقت عيناه بالدموع وردّ على لويس يندد بغروره ويذكّره بما فعله المسلمون بالصليبيين ، ويذكره بأنه سيندم حيث لا ينفع الندم .

والواقع ان التحذير الذي أرسله الامبراطور فردريك الثاني أفاد الصالح أيوب ، فأسرع إلى تحصين دمياط بعد أن أثبتت التجارب اختيار الصليبيين لها نقطة ارتكاز للاستيلاء على مصر ، وكان أن عهد السلطان الصالح إلى الأمير فخرالدين يوسف ـ صديق الامبراطور فردريك القديم ـ بالوقوف على رأس قوة على البر الغربي لفرع دمياط لمنع الصليبيين من النزول على ذلك البر ، اما دمياط ذاتها فقد شُحنت "بالآت عظيمة وذخائر وافرة ، وجعل فيها بني كنانة وهم مشهورون بالشجاعة " .

وعندما وجد لويس التاسع ان دمياط قوية التحصين بحيث يتعذر عليه النزول على برها ، قرر النزول على الضفة الغربية للنيل المواجهة لدمياط . وعلى الرغم من أن قوات الأمير فخر الدين تصدّت للصليبيين وقاومتهم ، إلا أنها لم تنجح في مهمتها واستطاع الصليبيون النزول على الشاطئ ، مما جعل الأمير فخر الدين ومعظم رجاله يفرون ليلاً إلى الضفة الشرقية حيث توجد دمياط . ولم يلبث ان استولى الرعب على

اهل دمياط ، فتركوا مدينتهم بما فيها هاربين ، بعد ان اشعلوا النار في سوقها بل ان عرب كنانة الذين عهد اليهم الصالح ايوب بالدفاع عن المدينة ولّوا الادبار وتركوا ابواب دمياط مفتوحة ، وفاتهم عند فرارهم ان يقطعوا الجسر الذي يربط دمياط بالضفة الغربية التي عليها الصليبيون .

وهكذا صارت دمياط مدينة مفتوحة خالية من وسائل الدفاع " فتملكها الفرنج بغير قتال " في ٦/ حزيران ١٢٤٩ م ـ ٦٤٧هـ/ ويروي المقريزي ان الصليبيين عندما رأوا أبواب دمياط مفتوحة ولا احد يحميها شكّوا ان يكون الأمر خدعة ، ولكنهم لم يلبثوا أن أدركوا الحقيقة " فدخلوا المدينة بغير كلفة " واستولوا على مافيها من مؤن وآلات وأسلحة وأموال " صفوا عفوا " .

على ان الصليبيين لم يحاولوا في حملتهم هذه سنة ١٢٤٩/ م ـ ٦٤٧هـ/ أن يستفيدوا من الأخطاء التي وقعت فيها الحملة الصليبية الخامسة سنة ١٢١٩/ م ـ ٦١٦هـ/ . ذلك انه كان من المفروض ان يبادر لويس التاسع بالزحف الى داخلية البلاد لمحاولة القضاء على الجيش الأيوبي ، ولكن الصليبيين أضاعوا الوقت في دمياط خمسة أشهر كاملة ، وربما أراد لويس التاسع بذلك ان ينتظر انحسار فيضان النيل الذي كان سبباً في فشل حملة حنا دي بريين على مصر قبل بثلاثين سنة . ومهما تكن الأعذار التي حاول بعض المؤرخين انتحالها لتبرير تباطؤ لويس التاسع في دمياط ، فالمهم ان ذلك التباطؤ اعطى السلطان الصالح أيوب فرصة طيبة للاستعداد واعادة تنظيم جيشه .

وكان الصالح ايوب قد عاقب امراء بني كنانة عقاباً شديداً لفرارهم من دمياط ، كما وبّخ الأمير فخر الدين ورجاله لعدم ثباتهم أمام الصليبيين ، ولكن المرض اشتد على الصالح أيوب ، فحُمل الى قلعة المنصورة حيث استمر ـ وهو على فراش الموت ـ في تنظيم شئون الدفاع . ثم ان المسلمين انتهزوا فرصة انتقال الجيش الصليبي مرة اخرى الى الضفة الغربية للنيل ، وأخذوا يشنون عليه الغارات المتوالية حتى اسروا كثيراً من الصليبيين وارسلوهم الى القاهرة .

وأخيراً وصلت الامدادات الى لويس التاسع في صحبة أخيه في / تشرين الاول سنة